المحاضرة الرابعة : الأمثال والحكم

تعريف المثل :

لغة :

جاء في المعاجم العربية معنى مادة (م ث ل) على النحو الآتي:

ـ « مثل: كلمةٌ تَسْوِيَةٍ، يُقَالُ: هَذَا مِثْله ومَثَله كَمَا يُقَالُ شِبْهه وشَبَهُه بِمَعْنًى؛ قَالَ ابْنُ بَرّيّ: الْفَرْقُ بَيْنَ المُمَاثَلَة والـمُساواة أَن المُساواة تَكُونُ بَيْنَ المختلِفين فِي الجِنْس والمتَّفقين، لأَن التَّساوِي هُوَ التكافُؤُ فِي المِقْدار لَا يَزِيدُ وَلَا ينقُص، وأَما المُمَاثَلَة فَلَا تَكُونُ إِلا فِي الْمُتَّفِقِينَ، تَقُولُ: نحوُه كنحوِه وفقهُه كفقهِه ولونُه كلونِه وطعمُه كطعمِه، فإِذا قِيلَ: هُوَ مِثْله عَلَى الإِطلاق فَمَعْنَاهُ أَنه يسدُّ مسدَّه، وإِذا قِيلَ: هُوَ مِثْلُه فِي كَذَا فَهُوَ مُساوٍ لَهُ فِي جهةٍ دُونَ جهةٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: هُوَ مُثَيْلُ هَذَا وَهُمْ أُمَيْثَالُهم، يريدون أَن المشبَّه بِهِ حَقِيرٌ كَمَا أَن هَذَا حَقِيرٌ، والمِثْل: الشِّبْه. يُقَالُ: مِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه بِمَعْنًى وَاحِدٍ... » [1]

ـ « (مَثَلَ) الْمِيمُ وَالثَّاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُنَاظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَهَذَا مِثْلُ هَذَا، أَيْ نَظِيرُهُ، وَالْمِثْلُ وَالْمِثَالُ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ، وَرُبَّمَا قَالُوا مَثِيلٌ كَشَبِيهٍ، تَقُولُ الْعَرَبُ: أَمْثَلَ السُّلْطَانُ فُلَانًا: قَتَلَهُ قَوَدًا، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ فَعَلَ بِهِ مِثْلَ مَا كَانَ فَعَلَهُ. وَالْمَثَلُ: الْمِثْلُ أَيْضًا، كَشَبَهٍ وَشِبْهٍ، وَالْمَثَلُ الْمَضْرُوبُ مَأْخُوذٌ مِنْ هَذَا، لِأَنَّهُ يُذْكَرُ مُوَرًّى بِهِ عَنْ مِثْلِهِ فِي الْمَعْنَى...» [2]

مـما سبق يتبين لنا أن الأصل الثلاثي (م ث ل)، يدلُّ على معاني الشبه والنظير، والتسوية والمماثلة.

اصطلاحا :

إنَّ المتأمل لتعريفات القدمى يرى أنها موزعة بين النقاد كابن رشيق والبلاغيين كالزمخشري، ومؤرخي الأدب كابن حجة الحموي، والفقهاء كابن القيم الجوزية، وأصحاب كتب الأمثال كأبي عبيد القاسم بن سلام والميداني وغيرهم، ولكن أغلبها يفتقر للدقة والتحديد، اللهم إلا تعريفا أورده السيوطي للمرزوقي في كتابه (شرح الفصيح)، يقول فيه : « المثلُ جملة من القول مقتضَبةٌ من أصلها أو مرسلةٌ بذاتها، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كلِّ ما يصح قَصْدُه بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يُوجِبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تُضْرب وإن جُهِلت أسبابُها التي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومُضَارع ضرورات الشعر فيها ما لا يُسْتَجازُ في سائر الكلام » [3]

فالمثل على حسب المرزوقي، يضرب في حالات مشابهة لمورده الأصلي، يمكن أن تكون مأخوذة من كلام، كالأمثال الواردة بين ثنايا الخطب والوصايا، أو يكون مضروبا ومرسلا لا تعلُّقَ له بغيره، ويمتاز بالقبول، حيث إنه من المعلوم « أنَّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصِّر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المَدَى في النَّفَاسة » [4]، ويُضرب المثل ولو جُهِل أصله، ولا يتغير في حال من أحوال استعماله.

يعرف الزيات المثل بأنه :« جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها، تنقل عمن وردت فيه، إلى مشابهة بدون تغيير» [5]

وقيل : « بأنه قول سائر شُبِّه مضربه بمورده، أو قل شُبِّه فيه حال المقول فيه ثانيا، بحال المقول فيه أولا » [6]

---

[1] ـ أبو الفضل محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، لبنان، ط03، 1414 هـ، ص610. مادة [مَثَلَ]

[2] ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج05، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط02، 1979، ص 296، 297.

[3] ـ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 01، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط01، 1998، ص 375.

[4] ـ الصفحة نفسها.

[5] ـ أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، مصر، دط، دت، ص18.

[6] ـ محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط01، 1992، ص 148.

حقوق تالية لهذه المحاضرات محفوظة للأستاذ الدكتور طارق زيتي

مـما سبق يتبين لنا أن المثل هو قول موجز سار على ألسنة النَّاس وشاع بينهم، وارد في حادثة واقعيّة، أو متخيلة ، وهو مستمدّ من ملاحظة في البيئة، أو متعلّق بأشخاص، أو أشياء اشتهرت بصفات مستقبحة أو مستحسنة.

وقد تكاثر العلماء وتضافروا على جمع الأمثال وشرحها، حيث عدَّ ابن النديم في كتابه (الفهرست) عددا كبيرا من المؤلفات، منذ منتصف القرن الأول الهجري، التي وصلتنا وطبعت، نذكر منها كتب الأمثال للمفضل الضبي (ت 170 هـ)، كتاب الأمثال لمؤرج السدوسي (ت 195 هـ)، كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت224 هـ)، كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة (ت291هـ)،كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (ت 395 هـ)، كتاب المستقصي في أمثال العرب للزمخشري (ت 538هـ)، وكتاب مجمع الأمثال للميداني (ت 518هـ)، وهذا الأخير أجمعها وأدقها وأشملها، حيث جمع فيه صاحبه نحو خمسين كتابا سبقه، ونحو ستة آلاف مثل، رتبها بحسب أوائلها على حروف المعجم في ثمانية وعشرين بابا.

أهمية الأمثال :

1/ إن الأمثال هي مرآة صادقة تنعكس فيها حياة الشعوب وعاداتها وتقاليدها، من خلالها تُعرف سلوكات أصحابها، وتطلعاتهم وآلامهم وآمالهم ولغتهم وآدابهم، فهي كما قال عنها ابن عبد ربه : « هي وشي الكَلَام وجوهر اللَّفْظ، وحلى الْمعَاني، تخيرتها الْعَرَب، وقدمتها الْعَجم، ونطق بهَا كل زمَان وعَلى كل لِسَان، فهي أبقى من الشِّعْر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شَيْء مسيرها، وَلَا عَمَّ عمومها حَتَّى قيل: أَسْيَرُ من مثلٍ » [1]

2/ الأمثال نصوص لغوية أساسا، ولهذا، هي تحمل الكثير من خصائص اللغة وأسرارها، إفرادا وتركيبا، ولهذا يسوقها اللغويون والنحاة والبلاغيون جنبا إلى جنب، مع الشواهد القرآنية والنبوية والشعرية، يقول أبو هلال العسكري : « وَلما عرفت الْعَرَب أَن الْأَمْثَال تتصرف فِي أَكثر وُجُوه الْكَلَام وَتدْخل فِي جلّ أساليب القَوْل أخرجوها فِي أقواها من الْأَلْفَاظ ليخف اسْتِعْمَالهَا ويسهل تداولها فَهِيَ من أجل الْكَلَام وأنبله وأشرفه وأفضله لقلَّة ألفاظها وَكَثْرَة مَعَانِيهَا ويسير مئونتها على الْمُتَكَلّم مَعَ كَبِير عنايتها وجسيم عائدتها » [2]
3/ للأمثال وظيفة لا تنكر في التأثير والإقناع والاحتجاج، فقد ضربها الله في قرآنه ♥ والرسول صلى الله عليه وسلم في سنته، والخطباء في خطبهم والشعراء في أشعارهم والكتاب في رسائلهم .

وللمثل مورد ومضرب، فأمَّا المورد : هو الحالة التي قيل فيها المثل ابتداءً، وأمَّا المضرب [3]: فهو إطلاقه واستعماله في الحالات المتجددة، التي تشبه الحالة الأولى (المورد)، ولكن ليس بالضرورة أن يكون لكل مثل مورد (حادثة أو واقعة معينة ارتبط بها المثل)، فهناك الكثير من الأمثال لا قصة ولا حادثة لها، كالأمثال القرآنية والنبوية، والتي أُخذت من الأبيات الشعرية، والأمثال التي أصلها حكم، والأمثال المصدَّرة بأفعل التفضيل.

مـما سبق من تعاريف للمثل يتبين لنا أنَّه عبارة عن قول موجز بليغ شائع على ألسنة الناس، يمتاز بالإيجاز في اللفظ، والإصابة في المعنى، والحسن في التشبيه، والجودة في الكناية، وهذه الخصائص الأسلوبية هي من أضفت على المثل صفة السيرورة والذيوع والانتشار، حتى إن العرب يشبهون به كل شئ يذيع ويشيع بين الناس، فيقولون : ((أسير من مثلٍ))، ولكن لا يعني هذا أن الأمثال على درجة واحدة من الشيوع، فبغضها أسْير من بعض.

أنواع الأمثال :

لا تظهر في مؤلفات القدامى منهجية واضحة في تصنيف الأمثال، قصارى اجتهاداتهم استهدفت التمييز بين الأمثال حسب زمنيتها : القديمة (وتشمل الجاهلية والإسلامية) و الجديدة (المولدة) ، أو الأمثال المبدوءة بكلمات على أوزن (أفعل) من سواها، أما من المعاصرين، فيعتبر تصنيف المستشرق الألماني رودلف زلهايم أشهر

---

[1] - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج03، مرجع سبق ذكره، ص 03.
[2] - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1988، ص 10.
♥- يقول الله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ سورة إبراهيم، الآية : 25 ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ سورة الروم، الآية : 58 ، ويقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) ﴾ سورة العنكبوت، الآية : 43.
[3] - اختلف العلماء في الأصل الحسي، الذي أُخذ منه لفظ ((**ضربُ**)) المثل، فقيل مأخوذ من الضرب في الأرض؛ وهو الإيغال فيها، والإبعاد في أقاصيها، وقيل مأخوذ من ضرب الخباء، وهو نصبه وإقامة عمده، وقيل مأخوذ من ضرب الموعد، وقيل مأخوذ من الضَّرب والضَّريب، وهو المثل والنظير، وتخريجات أخرى.

التصنيفات [1]، فقد قسَّم المادة التي احتشدت بها كتب الأمثال، إلى عدة أنماط، واضعا لكل نمط مصطلحا يدلُّ عليه – وإن كان فيه ما يقال – على النحو الآتي :

01/ **المثل :** هو ما يتحقق معناه في تجارب وخبرات الحياة المتكررة، التي تنطبق على الحالات الشبيهة أو المماثلة الواقعة في سلوكات الناس، ومن أمثلة ذلك قولهم : ((عشبٌ ولا بعير)) [2]، ((أسمع جعجعة ولا أرى طحينا)) [3]، ((إن البغاث بأرضنا يستنسر))، ((نعم كلب في بؤس أهله)) [4]، ((لا يجتمع السيفان في غمد))، ((قد بين الصبح لذي عينين))...

02/ **التعبير المثلي :** في هذا النوع « لا يعرض أخبار معينة، عن طريق حالة بعينها، ولكنه يبرز أحوال الحياة المتكررة، والعلاقات الإنسانية، في صورة يمكن أن تكون جزءا من جملة » [5]، ولعل الفرق بين المثل والتعبير المثلي، هو أنَّ الأول، يعتمد على التشبيه، أي يصور موقفا معينا، ثم يُؤتى به في مواقف مماثلة، أما النوع الثاني: فلا يشترط أن يكون هناك تطابق بين المثل والحالة المماثلة والمشابهة له، فهي بهذا المعنى عبارات قائمة بذاتها، لا تحتاج إلى مطابقة، وإنما تقال بشكل عام، ومن نماذج هذا النوع، قولهم :((سواسية كأسنان المشط))، ((فلان لا يعوي ولا ينبح))، ((سكت ألفا ونطق خلفًا))، ((جاؤوا قضهم بقضيضهم)) [6]...

ويدخل في هذا النوع كذلك المبالغة في التشبيه، باستعمال صيغة (أفعل من)، ومن نماذجه قولهم: ((أظلم من حية))، ((أبصر من غراب)).

3/ **الحكمة:** يذكر زلهايم أن الحكمة تجمع كل ما يتصل بالعادات والتقاليد والتدبير، والأقوال السائرة، والعبارت النادرة، وهي مرتبطة بالناس تعبر عن خبرة واسعة، وهي تعتمد على الصياغة المجردة، ويرى أنه ليس من الصدفة أن تنسب إلى الفلاسفة والحكماء، الذين لم يفعلوا أكثر « من أن يضفوا على المثل معنى مجردا، ويحوروا محتواه، باستعمال كلمات عامة فلسفية، ويحولوا النثر إلى نظم ذي إيقاع وقافية » [7]، ومن الحكم التي ذكرها زلهايم في هذا النوع ما يأتي :((السرُّ أمانةٌ))، ((إن الكذوب قد يصدق))، ((عارك بجدٍّ أو دع))، ((أياك أن يضرب لسانك عنقك))، ((انصر أخاك ظالما أو مظلوما))، ((معاداة العاقل خير من مصادقة الأحمق))...

4/ **العبارة التقليدية :** وهي تلك العبارات المتداولة بين العرب، والتي تأخذ معنى الدعاء واللعن، والتحية، والتعزية والتهنئة وما شابه ذلك، ويقابلنا هذا النوع من الأقوال والعبارات الشائعة بين العرب في خطاباتهم اليومية، الكثير في كتب الأمثال، ومن أمثلة ذلك قولهم: ((رماه بأحقاف رأسه))، ((بلغ الله بك أكلأ العمر))، ((على بدء الخير واليمن))، ((بالرِّفاء والبنين))، ((لا أرقأ الله دمعته))...

ملاحظات :

1/ لاشك أن معيار التفريق بين المثل والعبارة التقليدية، يرجع إلى أن المثل قائم على التشابه والمطابقة بين مضرب المثل ومورده، بينما العبارة التقليدية، لا مطابقة فيها، وإنما استحسنها الناس لإيجازها وكثرة دورانها على ألسنتهم، فأصبحت تجري – عندهم - مجرى الأمثال.

2/ يصعب التمييز في الأمثال بين الجاهلي منها والإسلامي، لاختلاطهما عند الرواة والمؤلفين، ولكن هناك معالم ومعايير، يستطيع الدارس أن يحكم على زمنها، من خلالها : نسبته إلى جاهليين (كون المثل قاله جاهليٌّ أو ارتبط بشخصيات جاهلية، أو ارتبط بأحداث جاهلية كحروب وأيام العرب)، كون المثل يحمل روح الجاهلية، أو يدعو

---

[1] - هناك تصنيفات أخرى، متعلقة بعلة نشوئها : كالأمثال الناجمة عن حادث، والناجمة عن تشبيه، والناشئة عن قصة، والناشئة عن حكمة، والناشئة عن شعر، ومتعلقة بالاصطلاح المراد منه، كالمثل السائر والقياسي والخرافي.

[2] - تضرب للذي لا ينتفع بما عنده.

[3] - يضرب للذي يخلف الوعود، أو الذي يكثر الكلام والثرثرة فيما لا نفع فيه.

[4] - أصله أن بدويا قضى جمله، فجعل الكلب يأكل منه، ويضرب لمن ينتفع بمصائب الآخرين.

[5] - رودلف زلهايم، الأمثال العربية القديمة، ترجمة وتحقيق : رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط01، 1971، ص 30.

[6] - يرى أحد الباحثين أن زلهايم قد خانه التوفيق العلمي، حيث إننا إذا تأملنا النماذج التي مثَّل بها للنوعين الأول والثاني : « فلا نكاد نلمس فرقا بينها، إذ لو وضعنا نماذج المثل تحت التعبير المثلي، وكذلك الأخرى، فلا يغير ذلك من مفهوم المصطلح، الذي أشار إليه زلهايم، فما الفرق بين قولهم :(سواسية كأسنان المشط)، و(عشب ولا بعير) ؟ كلاهما يحمل السمات ذاتها التي عرضنا لها من قبل » مقدمة محمد عثمان لكتاب المفضل بن سلمة الضبي، الفاخر في الأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2011، ص 14،15.

[7] - رودلف زلهايم، الأمثال العربية القديمة، مرجع سبق ذكره، ص 32.

لمعتقد أو سلوك جاهلي، كون العلماء المحققين نصُّوا على جاهلية المثل أو إسلاميته، يقول : هاشم صالح مناع مشيرا إلى أسباب عدم التوصل إلى صاحب الحكمة من غيره: « إن الدارس للحكم الصادرة عن عصر معين يواجه صعوبة في تحديد نسبة هذه الحكم لأصحابها، ومن ثم لعصرها، إلا من بعضها المي نسبته المصادر إلى أصحابه وعصوره. وترجع الصعوبة إلى أن الحكمة تعبير يجسد خصالا وسلوكا خلقيين، لا يرفضهما أي عصر من العصور » [1]

وبالموازاة مع ذكر المثل، لابد من التطرق – ولو باختصار - لموضوع الحكمة في المشهد النثري الجاهلي :

تعريف الحكمة :

لغة:

الحكمة في اللغة تطلق على عدة معان، أشهرها ثلاثة:

1/ **العلم** : فالعرب تقول : حَكُم فلان حُكْما وحِكْمة، إذا صار حكيما، أي عالما صاحب حكمة، فكأنَّ حاصل العلم وثمرته، هي الحكمة، ومنه قول النَّمر بن تولب :

وأَبْغِـــض بَغِيضَـــكَ بُغْضـــاً رُوَيْـــداً، إذا أَنـــــتَ حاوَلْـــــتَ أن تَحْكُمـــــا[2]

أي إذا حاولت ان تكون حكيما بمعنى علما وفقيها.

2/ **الإتقان** : وذلك في قولنا : أَحْكَمَ فلان عمله، أي أتقنه، فعمله مُحْكَمٌ، وفي هذا المعنى قول الأعشى يصف القصيدة :

وغَريبَـــةٍ، تـــأتي المُلـــوكَ، حَكِيمَـــةٍ، قَـــدْ قُلْتُهـــا ليُقـــالَ: مَـــنْ ذَا قالَهـــا؟[3]

3/ **المنع :** فيقال : حَكَمْتُ السَّفيه، وأَحْكَمْتُهُ ، أي منعته وأخذتُ على يديه، ومنه قول جرير:

أَبَنِـــي حَنِيفَـــةَ، أَحْكِمُـــوا سُـــفَهَاءَكُمْ، إنِّـــي أَخَـــافُ عَلَـــيْكُمُ أَنْ أَغْضَـــبَا[4]

أَي رُدُّوهم وكُفُّوهُمْ وَامْنَعُوهُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ لِي، ومن هذا المعنى سُمِّي الحاكم، لأنه يمنع الظلم من الوقوع، وسُمِّي ما يحيط بحَنَكَيْ الفرس (الحَكَمَة)، لأنها تمنعه من الجموح والنفار.

اصطلاحا:

للحكمة في تعريفها أقوالا شتَّى، تختلف في ألفاظها، ولكنها تؤدي دلالات متقاربة، فقد عرَّفها الزيات بأنها :« قول رائع موافق للحق، سالم من الحشو، وهي ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة » [5]

وعُرِّفت بأنها : « تلك العبارة التجريدية، التي تصيب المعنى الصحيح، وتعبر عن تجربة من تجارب الحياة، أو خبرة من خبراتها، ويكون هدفها عادة الموعظة والنصيحة » [6]

وقيل : إنَّها « نظرات وانطباعات وتأمل في الحياة والموت، ومحاولات لسن نظم خلقية يتبعها الناس، فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات (...) تصاغ في بيت شعر أو مثل أو عبارة أنيقة

---

[1] - هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، مرجع سبق ذكره، ص 167.
[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج 12، مصدر سبق ذكره، ص140. مادة [حَكَمَ]
[3] - المصدر السابق، ج12، ص 141.
[4] - جرير بن عطية، الديوان بشرح محمد بن حبيب، تح: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط03، 1986، ص 466.
[5] - أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، مصر، دط، دت، ص 18.
[6] - عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، دار رالفكر، دمشق، سوريا، ط01، 1988، ص18.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زيتاي

موجزة غزيرة المعنى ذات دلالات بعيدة، تقع في النفس موقعها الأثير، فيقب عليها السامعون يروونها ويحفظونها، وتغدو أمثالا تجري على الألسنة على مر العصور » [1]

من التعريفات السابقة يتبيّن أن الحكمة قول موجز مجرّدٌ صائب الفكرة، رائع التعبير، يتضمن معنى مسلماً به، يهدف عادة إلى الخير والصواب، به تجربة إنسانية عميقة، تصدر عمن عركته الحياة وعركها، و محصته التجارب، في أمر من الأمور.

هذا وقد حفظت لنا كتب الأدب أسماء حكماء العرب، الذين طبقت حكمهم الآفاق، وتلاها وشاعت بينهم، وخلدت ذكراهم، منهم : لقمان بن عاد ولُقيم بن لقمان، ومجاشع بن دارم، وسَليط بن كعب بن يربوع، ولؤي بن غالب، وقس بن ساعدة، وقُصي بن كلاب، وأكثم بن صيفي ... وغيرهم.

ومن حكم العرب في الجاهلية التي اشتهرت ما يلي :

- مصارع الرجال تحت بروق الطمع.
- من سلك الجدد أمن الثار.
- من ضاق صدره اتسع لسانه.
- يدك منك وإن كانت شلاء.
- رضا الناس غاية لا تدرك.
- أرسل حكيما ولا توصه.
- ربَّ ملومٍ لا ذنب له.

الفرق بين المثل والحكمة:

إذا كان الاتفاق بين المثل والحكمة، في أنَّ كلا منهما يتحرَّى الإيجاز في التعبير، وكلاهما شفوي يُنقل عبر الرواية، فإن هناك فروقا، تجعلهما يختلفان، منها :

ـ أن المثل أكثر شيوعا بين الناس.

ـ أن المثل صاحبه في الأغلب مجهول الهوية بخلاف الحكمة.

ـ أن المثل يُؤتى به للمطابقة بينه وبين الذي ينطبق عليه المثل بعد ضربه، بخلاف الحكمة.
ـ أن المثل يصدر عن كل فئات المجتمع وطبقاته، أما الحكمة، فلا تصدر في الغالب إلا عن حكيمٍ، أو فيلسوفٍ.
ـ أن المثل أقل تجريدا وأكثر تخصيصا، أما الحكمة فتنهل من معين الفلسفة، وتنشأ من إعمال الفكر، والتعمق في فهم الحياة، وإدراك حقائقها وأسرارها.
ـ المقصود من المثل الاحتجاج ومن الحكمة التنبيه والوعظ والإعلام.
ـ المثل الحقيقة فيه ناتجة عن تجربة، بخلاف الحكمة، التي تصدر عن رؤية حدسية أو تأمل عقلي.
ومع هذا تبقى العلاقة بينهما نسبية، فالمثل يمكن أن يصبح حكمة، إذا كان ضاربا بسهم في التجريد، ويمكن للحكمة أن تصير مثلا تجاوزا، إذا تحقق لها شرط الذيوع والانتشار، ومن أمثلة الحكم التي صارت أمثالا، قولهم: ((شاهدُ البغضِ اللحظُ))، ((إذا رأيت الريح عاصفا فتطامن))، ((ربَّ قولٍ أشد من صولٍ))، ((أعذر من أنذر))، ((العوْد أحمد))، ((النساء حبائل الشيطان))...

الخصائص الفنية والأسلوبية للمثل والأحكام :

تعدُّ الأمثال والحكم مصدرا لغويا مهمًّا؛ حيث إننا إذا تأملنا المعاجم العربية القديمة فإننا نراها حاضرة تتخلل موادَّها المختلفة، بل وتُساق جنبا إلى جنب مع الشواهد الأخرى كالقرآن الكريم والحديث النبوي والشعر وغيره، ويرجع اهتمام اللغويين بألفاظ الأمثال والحكم، ولهذا نجد أصحاب المعاجم يصرحون فيها بقراءتهم واستفادتهم من كتب الأمثال كالأزهري وابن منظور، وأنَّ هذه الأمثال « تقوم بوظيفة أخرى في تفسير مفردات اللغة ، ولاسيما الغريب والنادر منها ، كما تقوم بوظيفة أخرى في تحليل التراكيب وإعرابها » [2]

[1] ـ يحي الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط05، 1986، ص 403.
[2] ـ عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، مرجع سبق ذكره، ص228.

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زينای

* الملاحظ في الأمثال والحكم العربية القديمة، أنَّ الكثير منها قد حوى مفردات غريبة تحتمل أكثر من معنى، وهو ما يسميه ابن جني « توجه اللفظ الواحد إلى معنيين اثنين »[1] ومن هذه الأمثال قولهم : ((ما يعْرِفُ هرًّا من برٍّ)) فهذا المثل على سبيل المثال روى ابن منظور في تفسيره تسعة أقوالٍ منها قوله في تفسيره : « مَعْنَاهُ مَا يَعْرِفُ مَنْ يَهِرُّه [يَهُرُّه] أَي مِنْ يَكْرَهُه مِمَّنْ يَبِرُّه، وَقِيلَ: الهِرُّ السِّنَّوْرُ، والبِرُّ الفأْرةُ فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ، أَو دُوَيْبَّةٌ تُشْبِهُهَا، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي مَوْضِعِهِ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مَا يَعْرِفُ الهِرْهَرَة مِنَ البَرْبَرَةِ، فالهِرْهَرة: صوتُ الضأْن، والبَرْبَرَةُ: صوتُ المِعْزى. وَقَالَ الْفَزَارِيُّ: البِرُّ اللُّطْفُ، والهِرُّ العُقُوق. وَقَالَ يُونُسُ: الهِرُّ سَوْقُ الْغَنَمِ، والبِرُّ دُعاءُ الغَنَمِ. وَقَالَ ابْنُ الأَعرابي: البِرُّ فِعْلُ كُلِّ خَيْرٍ مِنْ أَي ضَرْبٍ كَانَ، والبِرُّ دُعاءُ الْغَنَمِ إِلى العَلَفِ، والبِرُّ الإِكرامُ، والهِرُّ الخصومةُ، وَرَوَى الْجَوْهَرِيُّ عَنِ ابْنِ الأَعرابي: الهِرُّ دُعَاءُ الْغَنَمِ والبِرُّ سَوْقُها » [2] ومنها أيضا قولهم : ((ما يعرِف قبيلاً من دَبِيرٍ))، وقولهم : ((جاب بالطِّمِّ والرِّمِّ))، وقولهم : ((لا يعرف الحيَّ من اللَّيِّ)) وكذا ((بعينٍ ما أرينَّك))، الذي علق عليه أبو هلال العسكري بقوله : « مَعْنَاهُ اعجل وَهُوَ من الْكَلَام الَّذِي قد عرف مَعْنَاهُ سَمَاعا من غير أَن يدل عَلَيْهِ لَفظه، وَهَذَا يدل على أَن لُغَة الْعَرَب لم ترد علينا بكمالها وَأَن فِيهَا أَشْيَاء لم تعرفها الْعلمَاء » [3]

* أما من الناحية الصرفية للأمثال والحكم صيغٌ جوامد، لا تتبدل مع أحوال المخاطبين بها، إفرادا وتثنية وجمعا، وتذكيرا وتأنيثا، فهي تلتزم حالة واحدة، فعندما نقول:((الصيف ضيعتِ اللبن))، يبقى المثل على حالته (التاء المكسورة)، ولو اختلفت أحوال المخاطبين به، بل تُؤدى على ما جاءت عليه عند العرب، ويرجع ذلك لنفاسة المثل وغرابته.

* وفي الناحية النحوية فالملاحظ أنَّ الأمثال العربية في العصر الجاهلي قد استعملت الجمل الاسمية؛ التي تدل على الثبوت والدوام، كقولهم : ((أول الحزم المشورة))، ((المرء بخليله))، ((الحديث ذو شجون))، ((المِكثار كحاطب ليل))، ((الحق مغضبة))، ((حيلة من لا حيلة له الصبر))، ... والجملة الاسمية؛ التي تدل الشمول والعموم والاستغراق، كقولهم : ((كل امرئ في بيته صبيٌّ))، ((كل ذات ذيلٍ تختال))، ((كل شاة تُناط برجلها))، ((كل فتاة بأبيها معجبةٌ))، ((لكل ساقطةٍ لاقطةٌ))...، وصيغة الجملة الشرطية؛ التي ترتِّب أمرا على أمرٍ، كقولهم : ((من أشبه أباه فما ظلم))، ((من أكثر أسقط))، ((من سلك الجدد أمن العثار))، ((إذا كنت كَذُوبا فكن ذَكُورا))، ((من ينكحِ الحسناء يعط مهرها))...

* أيضا خروج الأمثال والحكم عن القياس، فهي كالشعر يتحملان الضرورات، ويُتسامح فيهما، ما لا يُتسامح في غيرهما من أنواع الكلام، ولهذا تخرج الأمثال والحكم – أحيانا – على القياس، وذلك حرصا منهم على أن يوفروا لها صنوفا من الزخرف الفظي، خاصة ما تعلق منه بالسجع والازدواج، حتى تكون أوقع في النفس وآنق للسمع، وأيضا أنّ بعض الذين تصدر عنهم الأمثال لا يتحكمون في اللغة وقواعدها وضوابطها، كالمثل الصادر عن العامة، وغير العرب، والخروج عن القياس يكون : إما من ناحية بنية الكلمة واشتقاقها، كقولهم : ((هو هالكٌ في الهوالك))، إذ إن وزن(فاعل)، إذا كان صفة لمذكر عاقل، لا يُجمع على (فواعل)، لأن العرب، لا يجمعون على وزن (فواعل) إلا ما كان صفة لمؤنث عاقل ، كضاربة – وضواربٌ، ويدخل في هذا النوع الأمثال الآتية : ((أجناؤها أبناؤها))، جمع جانٍ وبانٍ، والقياس الصرفي يقتضي أن يكون المثل على النحو الآتي : جناتها بناتها؛ لأن الميزان الصرفي لا يجمع فاعلا على أفعال، وكذا ((أساءَ سمعًا فأساءَ جَابةً))، وإما من ناحية التركيب والإعراب، كقولهم : ((أعط القوس باريها))، تسكن ياؤه " باريها" ، والصحيح، أنها تنصب •.

* ومن ناحية التركيب البلاغي فقد أكثرت الأمثال والحكم العربية من استعمال الاستعارات والكنايات والتشبيهات، يقول شوقي ضيف : « من يمعن النظر في الأمثال الجاهلية يجد طائفة منها توفر لها ضروبا من القيم التصويرية والموسيقية، ففيها أحيانا تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل، وفيها أحيانا أخرى صقل وسجع وتنميق »[4] بل إن مادة (مثل) تدل على المشابهة، وإذا كان التصوير من أساليب البيان، المجمع على بلاغتها وعلوّ كعبها، فهي في الأمثال

---

[1] - الخصائص، ج03، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط04، ص 166.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، ج04، مصدر سبق ذكره، ص54 مادة [بَرَرَ].

[3] - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 192.

• - ومكمن الخطأ أن هذا المثل في أصله هو بيت شعر، أضحى جزء منه مضرب المثل، و هو ((أعط القوس باريها))، والبيت هو :

يَا باري الْقوس برياً لست تحكمه * لَا تظلِمِ الْقوسَ أعْط الْقوس باريها**

أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 66.

وهو واقع تحت الضرورة الشعرية، إذ حرَّكنا الياء كسرنا وزن البيت.

[4] - الفن ومذاهبه في النثر العربي، مرجع سبق ذكره، ص 24.

أبلغ، « لأنها تجسد المعاني المعقولة، وتشخِّصها وتخرجها، في صورة حسية، تزخر بالحركة والألوان والحياة » [1] وتوضيحا لهذا المعنى، نسوق المثلين الآتيين: ((قبل الرماء تمُلأُ الكنائن))، فهذا يضرب في الاستعداد للأمر قبل وقوعه، وهو أمر معقول مجرَّد، شُبِّه بحالة حسِّية، معروفة، وهي استعداد الرجل بملء كنانته سهاما تحسبا للرَّمي، إذا حان وقته، وقولهم : ((كمبتغي الصيد في عِرِّيسة الأسد))، يُضرب في الرجل يخطئ في طلب الحاجة، في غير موضعها، وهذا هي المشبه، أما المشبه به، فهو الرجل يدخل عرين الأسد طالبا منه الغنيمة (الصيد)، فيلقى حتفه، ومن التصوير جودة الكناية والتعريض؛ وهو أن تتكلم بشئ وتريد غيره، ولتوضيح الكناية نأخذ المثل الآتي: ((بلغ السيل الزُّبى))، يُقال عندما يبلغ الأمر غايته، في الشدة والصعوبة، لكن المتكلم أخفى هذا المعنى، حيث لم يستخدم الألفاظ المعبرة عنه، بل استعمل غيرها مما لا تعبر عنه في وضع اللغة.

* أما المحسنات البديعية، فقد كثر في المثل والحكمة السجع والجناس والمقابلة والازدواج، مما يدلنا على أن العرب كانت تقصد إليها قصدا، بل يتصرفون في الأمثال والحكم حتى يتحقق لها الحسن البديعي، منها قولهم : ((حنَّت ولا تهنَّت، وأنّى لكِ مَقْرُوعٌ))، فتصرفت العرب في فعل ((تهنَّت))، بحذف الهمزة منه، تحقيقا منهم للسجع والازدواج، والمقابلة والطباق في قولهم : ((اختلط الحابل بالنابل))، وقولهم : ((ذهب بين الصَّحوة والسَّكرة))، وقولهم : ((غثُّك خير من سمين غيرك))...، ولعل الجناس أظهر المحسنات في الأمثال، من ذلك قولهم : ((أخبرته بعُجَرِي وبُجَرِي))، وقولهم : ((أُعطيَ العبد كراعا فطلب ذراعا))، وقولهم : ((الذلَّة مع القلَّة))... والملاحظ أن الجناس قد أعطى اللفظ جمالا وجرسا موسيقيا، ما جعله أقرب للطبع وأقرب وأطرب للسمع .

* **الإيجاز** : إذا كان الإيجاز من أظهر خصائص اللغة العربية، حتى أنه قيل (إن البلاغة الإيجاز)، فإنه في الأمثال والحكم أظهر وأوضح، فهو أبرز صفاتها وأخص خصائصها، يقول القلقشندي : « أما الأمثال الواردة نثرا، فإنها كلمات مختصرة، تورد للدلالة على أمور كلية مبسوطة، كما تقدّمت الإشارة إليه، وليس في كلامهم أوجز منها، ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوّح بها على المعاني تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا » [2] والإيجاز كما هو معروف، يُشبع المعنى، ويطيل المغزى، ويغرق في التلميح... ولهذا اضطرَّ النحاةُ إلى تأويل المعنى وتقدير الإعراب فيها، ومن شواهد الإيجاز في الأمثال ما يأتي: ((الحرب غشوم))، ((من أجدب انتجع))، ((آخر الدواء الكي))، ومن الإيجاز الحذف، مثل قولهم: ((التمر في البئر [3]))، ((سبق السيف العَذَل)).

حقوق طبع محفوظة للأستاذ الدكتور طارق زيناي

[1] - عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، مرجع سبق ذكر، ص 253.
[2] - أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج01، مصدر سبق ذكره، ص296.
[3]- يُرَاد بِهِ من عمل عملا كَانَ لَهُ مرجوعه وأصل هذا المثل : « أَن منادياً كَانَ يقوم فِي الْجَاهِلِيَّة على أَطَم من آطام الْمَدِينَة حِين يدْرك الْبُسْر فينادي التَّمْر فِي الْبِئْر أَي أَكْثرُوا من سقِي نخلكم فَإِن من سقى وجد عَاقِبَة سقيه فِي تمره » أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 214.